سلف ودين

كمـــــا فعلـــــت يفعـــــل بـــــك ، عملـــــك يرتـــــد علـــــى رأســـــك

تشـرق شـمس يـوم جديـد ومازلـت هائمـا فـي عـالمي الغريـب ، أري ، أتكلـم ، أشـعر ، لـيس بـي علـة ، لكننـي أشـعر أن هنـاك خطـب مـا ، أشـعر بتغييـرات فـي حيـاتي ، لـم أعـد قـادر علـي تحديـد مـا أريـده ، مـا أحبـه ، مـا أبغضـــه .

فتحـت أجفـاني ونظـرت أتطلـع الـي النافـذة ، وأتفـرس فـي جمـال الشـمس وبهائهـا ، ففـي سـطوعها تعطـي الأمـل دومـاً لكـل حـزين ويـائس ، ومـا لبثـت أتأمـل فـي جمـال المنظـر الـذي يـدخل معـه إلـى مخيتلـي أشـباه الـذكريات ، تتنـاثر حـولي مشـاهد لا أتـدراكها ، أشـعر بيقـين أنهـا تخصـــــني ولكـــــن لا يمكننـــــي التعـــــرف علـــــي ماهيتهـــــا .

أري فتـاة جميلـة صـغيرة تجـري حـولي وتصـرخ وتلعـب منهمكـة فـي طفولتهـا ، لا تعبـأ لأي شـئ سـوى إنسـجامها وفرحتهـا ، أراهـا أمـامي متجسـدة ذات شـعر أسـود جميـل طويـل ، وملامـح جميلـة تأخـذ العقـل والـروح ، أغـرق فـي جمـال ضـحكتها ، أتمنـي لـو العـالم يتوقـف لسـنوات أمـام هـذه السـعادة التـي تهـديها ألـي تلـك الفتـاة ، أحبهـا بجنـون ، أعشـق عبثهـــــــــــــــــا ، لعبهـــــــــــــــــا ، برائتهـــــــــــــــــا .

إنهـا تنـادني وأنـا أجـري صـوبها لألحـق بهـا حتـى أتـنعم بحضـن دافـئ منهـا ..... يـا إلهـي ... لمـاذا لا أقـوى علـي اللحـاق بهـا ؟ فهـي ليسـت بعيـدة ! هـي أمـامي تجـري ... أنتظـري ... أسـمعيني .... قفـي .

أيـن أنـت ؟ أيـن أختفيـت ؟! أنـك تخصـيني ! لا أعلـم مـن أنـت ! لكـن

أحبك .... أشعر بعشقك يسري في أوصالي ! من أنتِ حتى تأسريني بجمال طلتك و طفولتك وبرائتك .
و فجأة تظهر أمامي سيدة لا أعرفها لكني أتذكرها ؛ حين أتت اليَّ يومياً لتحضر لي الفطور ، أريد أن أسألها عن تلك الطفلة الصغيرة التي أراها دوماً في مخيلتي ، لا تترك عقلي ، أشعر بحنين اليها ... أريدها أن تمكث معي .

لا طائل من تلك التخيلات ... لا يقين سوى ذلك الواقع الذي يعتريه السأم والكأبة وبعدما تناولت الفطور الذي لا تختلف مكوناته كثيراً عن كل يوم ، جلست في الشرفة أرتشف بعض القهوة التي فرضت علي بدون سكر لدواعي صحية ، أخبرتهم كثيراً أني أحبها زائدة السكر ولكنهم يقولون أنني منذ شبابي وأنا أتناولها بدون السكر ؟! هل يعقل أني أحب طعم تلك المرار ! أما يكفي مرار تلك الأيام التي تمر ثقيلة كالجبال !
جاءت السيدة التي تعتني بأمري و أخبرتني أنه حان موعد الدواء ، لا أعلم أي دواء أحتاجه ومما أعاني ولكني رضخت للأمر وأصبحت خاضعا خانعا لما يخبرونني به .

شئت أم أبيت ، هذا هو يومي : فطور وغداء و عشاء ثم نوم وأعيد تلك الدورة ، هكذا أقضي حياتي ، أشعر أنني في سجن مقيت ، لا معني لحياتي ولا هدف ، يتلخص حياتي في أنني أكل لكي أعيش ! ولماذا أعيش ؟ هل هناك عمل جليل سأقوم به ؟ هل هناك هدف من إبقاء حياتي ؟ أشعر أنني عالة ! وحيد في دروب الحياة ، لا جليس ولا أنيس .

أتذكر بعض الشتات من الذكريات ، أشعر بأنني كنت ذا قيمة يوماً

مـا ، أتـذكر وجـوه بعـض الـزملاء ، أستشـعر تلـك الأيـام فـي وجـداني ، تـداعبني بعـض الابتسـامات التـي أسـرقها مـن يـومي عنـدما أتـذكر يـومي المكـتظ بالمهـام والمسـؤليات مـن العمـل إلـي المنـزل إلـى الشـارع ، رغـم كـل ذلـك العنـاء كنـت سـعيد راض بمـا أبذلـه ، كنـت أشـعر بقيمتـي ووقتـي ، كنـــت مهـــم حتـــي لـــو كـــان لبضـــعة أشـــخاص .

مـرت الأيـام كعادتهـا زاحفـة كالسـلحفاة ، وجائـت تلـك السـيدة تعـرض عليـا التنـزه قلـيلاً ، فسـعدت جـداً بـذلك العـرض ، لـم أكـن قـد رأيـت الشـارع إلا مـن بضـعة أشـهر ، فأنـا لا أراه إلا عنـدما أجلـس فـي الشـرفة . وبالفعـل ارتـديت ملابسـي اسـتعداداً للخـروج ، وخرجـت معـي تلـك السـيدة وذهبنـا إلـي حديقـة جميلـة تكـتظ بالأطفـال الـذين يركضـون هنـا وهنـاك والعـائلات المجتمعـين فـي ود وسـعادة ، أتطلـع بهـم وأستشـعر فـــــرحتهم بوجـــــودهم بجانـــــب أفـــــراد أســـــرتهم .

أمـا أنـا فـأعتراني الصـمت إلـى أن تسـلل إلـي صـوت تلـك السـيدة الجميلـة التـي إصـطحبتني للنزهـة معهـا ، فقالـت " هـل أنـت سـعيد ؟ أتمنـى أن تكـون راضـياً ! " فسـكت برهـة لكـي أفكـر ،مـا بالهـا تشـغل نفسـها بسـعادتي وراحتـي ، مـن تلـك المـرأة التـي أشـعر براحـة تجاههـا .... أومـأت رأسـي بالأيجـاب ، أمـا هـي فتبسـمت ونظـرت إلـى جمـال المنظـر حولها .

أكتنفتنـي الـذكريات ثانيـة ، فسـرت معهـا طائعـاً ، تـذكرت عنـدما كنـت أتـدفأ بحنـان أمـي ، أسـتعيد رائحـة حضـنها حينمـا أجـري عليهـا لأرتمـي بـين أحضـانها صـغيراً . تلـك المـرأة التـي ربتنـي وأعطتنـي كـل مـا لـديها مـن حنـان وحـب ودفـء . تـذكرت بغتـة عنـدما كبـرت وظللـت أعتنـي بهـا وأرعاهـا وأقبـل يـديها . أذكرهـا جيـداً حينمـا كانـت تمـلأ أذنـاي بتلـك الـدعوات المباركـة والأمنيـات الطيبـة . أمـي تلـك الإنسـانة التـي لا يمكـن أن أنسـاها ولا يـذهب ذكراهـا هاربـاً مـن رأسـي وحتـى إن هـرب مـن

عقلـــــــــــــي ســـــــــــــيظل عالقـــــــــــــاً بقلبـــــــــــــي .
فقـت علـى قبلـة تطبعهـا- تلـك السـيدة التـي مازلـت لا أعرفهـا -علـى يـدي ، فهبـت المنظـر ! وتسـألت دون أن أتكلـم ، لمـاذا ؟ ... مـن أنـت ؟ " إنـي أحبـك " قالتهـا وسـكتت ثـم أطـردت " أطـال الله فـي عمـرك يـا أبـي " لـم تتحـرك ملامحـي ، كنـت سـاكناً ، هادئـاً ...إسـتقبلت كلامتهـا بعجـب وفـرح ، فلقـد أجابـت علـى أسـئلتي المحيـرة : إنهـا ابنتـي ، نعـم ! تلـك الصـغيرة التـي كنـت أتمنـى أن أرهـا ، أفتقدها وهـي بجـانبي طـوال الوقـت ، كبـــرت وأصـــبحت ســـيدة كبيـــرة تتفقـــد أبوهـــا وترعـــاه .

فقالـت : أبـي ! أنـا لا أحـزن عنـدنا تنسـاني وتتعامـل معـي كغريبـة عنـك ! فأنـا أعلـم طبيعـة مرضـك " الزهـايمر " ودائمـاً يحـدث هـذا بيننـا ، تنسـاني ثـم أذكـرك ، تتكـرر تلـك الحادثـة كـل فتـرة لـيس ببعيـدة . لكننـي أحبـك وسـأظل معـك أعتنـي بـك كمـا أعتنيـت بـي صـغيرة وربيتنـي ،لـن أنسـي فضـلك ومحبتـك وحنيتـك وجهـودك معـي ، أبتسـمت قـائلاً : هـل تجـري الأيـام بتلـك السـرعة ! أطيافـك وانتـي صـغيرة لـم تتركنـي وكنـت أتـوق لأراكِ ولـم أعـرف مـن تلـك الطفلـة التـي تأسـر كيـاني ! وأنتـي بجـانبي طـول الوقـت لـم تتركينـي ! مـرت السـنون وكبـرت أبنتـي وكمـا لـم أنـس أفضـال والـدي وكنـت بـاراً بهـم ، تحنـنن الله علـي وكانـت ابنتـي هـي أيضاً بارة بي .

؛ صدقت أمي حين قالت : الدنيا سلف ودين !

.....